الباب العشرون

في بيان تنازع الناس
في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الصبر أفضل.

والثاني: أن الشكر أفضل.

والثالث: أنهما سواء. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت؟ ونحن نذكر ما احتجَّتْ به كل فرقة، وما عليها في احتجاجها بعون الله وتوفيقه.

قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعاً وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر، ويكفي في فضله قوله ﷺ: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصابر الشاكر**». فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر فإنه ألحق الشاكر الصابر وشبهه به ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله ﷺ: «**مدمن الخمر كعابد وثن**» ونظائر ذلك قالوا: وإذا وازنا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما في سائر الأبواب فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد قالوا: وأيضاً فالصبر يدخل في كل باب بل في كل مسألة من مسائل الدين ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد قالوا: وأيضاً فالله سبحانه وتعالى علق على الشكر

الزيادة فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧) وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب وأيضاً فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤) وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (النحل: ٩٦). قالوا: وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم له الا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» ـ وفي لفظ ـ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها ـ قال الله تعالى ـ الا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به**». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما في الحديث نفسه: «**يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**». ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**». ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع، فُسِّر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) أنه الصوم وسُمِّي رمضان شهر الصبر. وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح وهو قوله: «**اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحدٌ سابَّه أو شاتمه فليقل: إني صائم**». فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه فهذه تفسد صومه وهذه تحبط أجره كما قال في الحديث الآخر: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه**». قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون: ١١١). فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩) لا شيء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخيري الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية

الله، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨). وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٧). وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها.

والزهد فيها حال الصابر والاستكثار منها حال الشاكر قالوا: وقد سئل المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها وقال: بل أجوع يوماً وأشبع يوماً ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها، قالوا: وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها وأعمال يعمل بها وأحوال ترتب له على علومه وأعماله وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه أشرف ما في الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملاً للمعارضات التي عليه والمحن التي امتحن بها وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك وكل العلوم والمعارف تبع لهذه

المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم في فضلها بحسب قرب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه.

وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه وكذلك الأعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود وكان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلى هذا المقصود وهكذا يجب أن يكون فإنه كلما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها فالعمل المعد للقلب المهيىء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك واذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضي ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهياً عنها وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها.

وههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام، وطرق الخير والشر مخالطته للناس، وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود، ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته.

وتأمل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر بل قال: **«إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما**

أحب لنفس لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم». وأمر غيره بالصيام وقال: **«عليك بالصوم فإنه لا عِدْل له»**. وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثاً بأن لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله، ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيىء له فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل:

مَا زالَ يسبقُ حتَّى قالَ حَاسِدُهُ: هذا طريقٌ إلى العلياءِ مختصرُ!

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه فالشح المطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر، والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده ولو قيل: أيهما أفضل: الخبز أو الماء لكان الجواب: إن هذا في موضعه أفضل وهذا في موضعه أفضل. واذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه، فتهيء لمعرفة الله ومحبته فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء. وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا: فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه بأن قالوا: الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: واذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة وحال الشاكر حال المتداوي بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

فصل [في خصوصية أهل الشكر]

قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم وفضلتم مقاماً غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على الأكمل والفاضل على الأفضل ولم تعرفوا للشكر حقه ولا وفيتموه مرتبته وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعوناً عليهما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة: ١٥٢). وقرن سبحانه الشكر بالايمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧). أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو: الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام: ٥٣). وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣).

وقال نبيّه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧). وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧). وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤). والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ (التوبة: ٢٨). وقوله في الاجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ (الأنعام: ٤١). وقوله في الرزق: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة: ٢١٢). وفي المغفرة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٤٠). والتوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ (التوبة: ١٥). وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر كقوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٥). ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف: ١٧). ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠). وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣). وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤). فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء: ٣). وفي تخصيص نوح ههنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني فإن الله تعالى لم يجعل الخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (الصافات: ٧٧). فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبداً شكوراً.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢). وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ

إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤). وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤).

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧). وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل: ١٢٠ ـ ١٢١). فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة ـ قدوة ـ يؤتم به في الخير وأنه قانتاً لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكراً لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨). فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (آل عمران: ١٢٣). ويجوز أن يكون قوله: (لعلكم تشكرون) تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معا وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والأمر وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢). قالوا: فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في «**الصحيحين**» عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطَّرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**». وثبت في المسند والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «**والله إني**

لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا أبو معاوية وجعفر ابن عون عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».**

قال: وحدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وبدناً على البلاء صابراً وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في ماله».**

وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **«ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره وأن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له».**

وقد ثبت في **«صحيح مسلم»** عنه ﷺ أنه قال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»** فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢). في مقابلة شكر بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى ابن عطارد القرشي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة لأن الله تعالى يقول:** ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾» (إبراهيم: ٧). وقال الحسن البصري: ان الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً ولهذا كانوا يسمون الشكر «الحافظ» لأنه يحفظ النعم الموجودة، «والجالب» لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لرجل من همذان: إن النعمة موصولة بالشكر والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبد العزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله وكان يقال: الشكر قيد النعم وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر. وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ (الضحى: ١١). والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال. وقال علي بن الجعدي: سمعت سفيان الثوريّ يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا الفضل بن فضالة عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أنعم الله على عبد نعمةً يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**. وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: **«كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**.

وذكر شعبة عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة فقال: هل لك من مال قال: قلت نعم قال: من أي المال قلت: من كل المال قد أتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم قال: **«فإذا آتاك الله مالاً فليرى عليك»**.

وفي بعض المراسيل: **«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه»**. وروى عبد الله بن يزيد المقري عن أبي معمر عن بكير بن عبد الله رفعه: من أعطي خيراً فرؤي عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، ومن أعطي خيراً ولم ير عليه سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧). وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها وقد قال تعالى: **«يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي، فتحذرني لأصرعك بين معاصي يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت»**.

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله. وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً وقد ذم الله سبحانه **«الكنود»** وهو الذي لا يشكر النعمة قال الحسن: «إن الانسان لربه لكنود»، يعد المصائب وينسى النعم وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب قال: **«لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»** فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله:

يَـا أَيُّـهـا الـظـالـمُ فـي فـعـلـهِ ... والـظُّـلْـمُ مـردودٌ عـلـى مـن ظَـلَـمْ

إلـى مـتـى أنـتَ وحـتّـى مـتـى ... تشكو المصيبات وتنسى النِّعمْ؟!

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: **«التحدث بالنعمة شكر، وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس، لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب»**.

وقال مطرف بن عبد الله: نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ولأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر ورأى بكر بن عبد الله المزني حمالاً عليه حمله وهو يقول: الحمد لله أستغفر الله قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا قال: بلى أحسن خيراً كثيراً أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنب فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفره لذنوبي فقلت: الحمال أفقه من بكر.

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: **«قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردًا منكم كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾** (الرحمن: ١٣) قالوا: ولا بشيء

من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». وقال مشعر لما قيل لآل داود: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ (سبأ: ١٣). لم يأت على القوم ساعة الا وفيهم مصلى.

وقال عون بن عبد الله قال بعض الفقهاء: إني نظرت في أمري فلم أر خيراً إلا شر معه، إلا المعافاة، والشكر فرب شاكر في بلائه ورب معافى غير شاكر فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعاً.

وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصاً فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي وأتجمل به في حياتي ثم مد يديه شيئاً يزيد على يديه، فقطعه ثم أنشأ يحدث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من لبس ثوباً ـ أحسبه جديداً ـ فقال: حين يبلغ ترقوته ـ أو قال: قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ـ ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسا به مسكيناً لم يزل في جوار الله، وفي ذمة الله وفي كنف الله حياً وميتاً ما بقي من ذلك الثوب سلك**». وقال عون بن عبد الله: لبس رجل قميصاً جديداً فحمد الله، فغفر له فقال رجل: أرجع حتى أشتري قميصاً، فألبسه وأحمد الله. وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان له فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت وإنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلّب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً وأن أكفرهم بعد أن عرفتها، وأن أنساها، ولا أثنى بها. وقال روح بن القاسم: تنسّك رجل، فقال: لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره، فقال الحسن: هذا أحمق وهل يقوم بشكر الماء البارد؟.

وفي بعض الآثار الإلهية: يقول الله عز وجل: «**ابن آدم خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلي منك بعمل قبيح**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جاراً لي يقول في الليل: يا إلهي خيرك عليّ نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم فقد

صعد إليك مني بعمل قبيح وأنت مع غناك عني تتحبب إليَّ بالنعم وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقت إليك بالمعاصي وأنت في ذلك تجبرني وتسترني وترزقني، وكان أبو المغيرة إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون».

وقال عبد الله بن ثعلبة: إلهي من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ومن حلمك أنك تُعصى وكأنك لا ترى وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال: بسم الله والحمد لله وقال أنس بن مالك: ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السمٰوات والأرض تعبر رزقه فتجعله في أيدي بني آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه فإن قبله العبد أوجب عليه الشكر وإن أباه وجد الغني الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام قال: يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكري وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه فلما طعم وغسل يديه قال: «**الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم منَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ، ولامكفور ولا مستغنى عنه، الحمد الله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العُرْي وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضَّل على كثير من خلقه تفضيلاً الحمد لله رب العالمين**».

في مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت**». ويذكر عن عائشة رضي الله

عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال: يا عائشة أحسني جوار نعم الله فإنها قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم وذكره ابن أبي الدنيا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: يا رب كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك قال: فأتاه الوحي: يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يا رب قال: فإني أرضى بذلك منك شكراً.

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: أحبني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي قال: يا رب هذا حبك وحب عبادك فكيف أحببك إلى عبادك قال: تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره..

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: وجدت في كتاب آل داود: بعزتي إن من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء، ثم أكله إلى نفسه كفى بي لعبدي مالا إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن يدعوني وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه.

وقال أحمد: حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا

وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها قال: فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

قال أحمد: وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عينية قال داود: يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني فأوحى الله اليه: نعم الضفدع وأنزل الله عليه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قال: يا رب كيف أطيق شكرك؟ وأنت الذي تنعم علي ثم ترزقني على النعمة الشكر ثم تزيدني نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتني يا داود.

قال أحمد: وحدثنا عبد الرحمن حدثنا الربيع بن صبيح عن الحسن قال نبي الله داود: إلٰهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قال موسى: يا رب كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله؟ قال فأتاه الوحي: يا موسى الآن شكرتني.

قال بكر بن عبد الله: ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله. وقال الحسن: سمع نبي الله رجلاً يقول: الحمد لله بالإسلام فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة. وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب الى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام.

وقال سليمان التيمي: إن الله سبحانه أنعم على عباده على قدره وكلّفهم الشكر على قدرتهم وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا، وفرجت عنا لك الحمد بالإسلام، والقرآن ولك الحمد بالأهل، والمال والمعافاة كبتَّ عدونا وبسطتَ رزقنا وأظهرتَ أمننا وجمعتَ فرقتنا وأحسنتَ معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا

أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا، في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى علم أن ذلك مني فحمدني عليه فكان ذلك شكر ما صنعت إليه وقال سعد بن مسعود الثقفي: إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حمد الله، وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين: كان يقال: الشكر ترك المعاصي، وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وقال أبو سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله، وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث عن أبي بردة قال: قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام، فقال لي: ألا تدخل بيتاً دخله النبي ﷺ ونطعمك سويقاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غداً ذكرهم بما أنعم عليهم، فيقول العبد: ما آية ذلك فيقول: آية ذلك أنك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتني فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتني، فصحبتك قال: يذكره حتى يذكر، فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه، فبكى، ثم بكى ثم قال: إني لأرجو الله أن لا يقعد الله عبداً بين يديه فيعذبه.

وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان عن ابن سرين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه: خذي حقك من حسناته فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها»**.

وقال بكر بن عبد الله المزني: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه فيأتيه الشيطان فيضعف شكره يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أو لا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه ولكن الله صرفه عني.

وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة بن يسار قال: بينا داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به ذرة فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها وقال: ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك فوالذي نفسي بيده لأنا على ما أتاني الله من فضله أشكر منك على ما أتاك من فضله.

وقال أيوب: إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأموناً على ما جاء به النبي ﷺ. وقال سفيان الثوري: كان يقال ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وقال زازان: مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمود الوراق:

إذا كَان شُكْري نعمةَ الله نعمة ... عليَّ له في مثلِهَا يجبُ الشكرُ
فكيف وقوعُ الشكرِ إلا بفضلِهِ؟ ... وإن طالتِ الأيامُ واتصلَ العُمْرُ
إذا مس بالسَّراءِ عمَّ سرورُهَا ... وإنْ مسَّ بالضرَّاءِ أعقبها الأجْرُ
وما منْهُمَا إلا له فيه مِنَّةٌ ... تضيقُ بها الأوهام والبرُّ، والبحْرُ

وقد روي الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو ـ عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ـ يعني قال الله عز وجل ـ: «**إن المؤمن عندي بمنزلة كل خير يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه**»، ومر محمد ابن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك، وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حيث وُلِّي القضاء بالرقة: أما بعد فلتكن التقوى من بالك على كل حال وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها فإن في النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق، ومرّ الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ أهل الجنة

وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذى أبكاني.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من هو فوقه»**.

قال عبد الله بن المبارك: أخبرني يحيى بن عبد الله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبي هريرة فذكره، وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلّ عمله، وحضر عذابه.

قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت قال الرجل: أحمد إليك الله قال: هذا أردت منك قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرثد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لعلنا نلتقي في اليوم مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك الا ليحمد الله عز وجل وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) قال: لا إلٰه إلا الله. وقال ابن عُيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إلٰه إلا الله قال: وأن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: أصبحتم زهراً وأصبح الناس غبراً أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون فبكى وأبكاهم.

وقال عبد الله بن قرط الأزدي ـ وكان من الصحابة ـ على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يالها من نعمة ما أسبغها ومن كرامة ما أظهرها ما زال عن قوم شيئاً أشد من نعمة لا يستطيعون ردها وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إن رجلاً بسط له من الدنيا فانتزع ما

في يديه فجعل يحمد الله، ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية قال: فجعل يحمد الله ويثني عليه وبسط لآخر من الدنيا، فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما تحمد الله قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه.

قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك أرأيتك لسانك أرأيتك يديك أرأيتك رجليك.

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا قال: فذكره نعم الله عليه فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة وكان أبو الدرداء يقول: الصحة الملك.

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه: فقد أبي بغلة له فقال: إن ردها الله عليّ لأحمدنه بمحامد يرضاها فما لبث أن أتي بها بسرجها ولجامها فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه ورفع رأسه الى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها فقيل له في ذلك فقال: هل تركت وأبقيت شيئاً جعلت الحمد كله لله.

وروي ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار وقال: إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله عليّ في ذلك شكراً قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله عليّ في ذلك شكراً قال: قد فعلت اللهم لك الحمد شكراً؟ ولك المن فضلاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).

وقال علي بن الجعد: حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون: حدثني

من أصدقه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ قال ابن أبي الدنيا: وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ثم قال: وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذكر ابن عُيينة فان قوله الحمد لله نعمة من نعم الله والنعمة التي حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله وبعض النعم أجل من بعض فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله وفعل العبد هو مفعول الله ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا فإن أكون فيما رضي الله لنبيه وأحب له أحب إليّ أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا كما يحمده على ما أعطاه وأين يقع ما أعطاه الله والحساب يأتي عليه إلى ما عافاه الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدث عن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عُيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا في كذا وكذا أنعم الله علينا في كذا وفعل بنا، وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: ٤٤) قال: يسبغ عليهم النعم

ويمنعهم الشكر وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة، وسُئل ثابت البناني عن الاستدراج، فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه أعطاه أشرف منها وإذا ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجاً وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها إني رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية واذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعي أنه وعظهم، فقال في موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فإنكم في دار الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً فقطعوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله فأصبح كثير منهم في دارهم جاثمين وأصبح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق منه إلا حماة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غير وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل وتبلغ بطول الأماني نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه.

وكان يقال: الشكر ترك المعصية وقال ابن المبارك: قال سفيان: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة وكان مروان بن الحكم إذا ذكر

الإسلام قال: بنعمة ربي وصلت إليه لا بما قدمت يدي ولا بإرادتي إني كنت خاطئاً.

وكم من مدخل لو مشَّ فيهِ ... لكنتَ فيه نكالاً في العشيرة
ووقيتَ السوءَ، والمكروهَ فيه ... وظفرتَ بنعمةٍ منه كبيرة
وكم من نعمةٍ للّه تُمسي ... وتصبحُ في العيان، وفي السريرة؟!

ودعى عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكراً لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم قال يزيد بن هرون: أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحاً ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأذهب عني أذاه فسمي عبداً شكوراً.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني العباس بن جعفر عن الحارث بن شبل قال: حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي ﷺ أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله وقال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته وان رأيت بهما شراً سترته قال: فما شكر الأذنين، قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته وإن سمعت بهما شراً دفعته قال: فما شكر اليدين قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما قال: فما شكر البطن قال: أن يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ (المؤمنون: ٥ ـ ٧). قال: فما شكر الرجلين قال: إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله وان مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا

منه حين رأيناه على تلك الحال فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسرّكم أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي، فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان، وقتل فلان وفلان التقوا بوادٍ يقال له «بدر» كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة فقال له جعفر: ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق قال: إنا نجد فيما أنزل على عيسى ﷺ: أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما يحدث الله لهم من نعمة فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع.

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى عبداً ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة إلا يكون أشد منه وقال عبد الملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها وكان رسول ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجداً شكراً له عز وجل، ذكره أحمد.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: خرج علينا النبي ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً فأطال السجود فقلت: يا رسول الله سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها فقال: **«إن جبريل أتاني، فبشرني أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صلّيت عليه، ومن سلّم عليك سلّمت عليه، فسجدت له شكراً»** ذكره أحمد.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة فلما كنا قريباً من عزور نزل ثم رفع يديه ودعى الله ساعة ثم خر ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجداً فعله ثلاثاً وقال: **«إني سألت ربي وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجداً لربي، ثم رفعت رأسي، فسألت ربي، فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً شكراً لربي ثم رفعت رأسي، فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي»** رواه أبو داود.

وذكر محمد بن إسحاق في كتاب «**الفتوح**» قال: لما جاء المبشر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذي لا اله إلا هو لقد رأيته قتيلاً فحلف له فخر رسول الله ﷺ ساجداً.

وذكر سعيد بن منصور: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سجد حين جاءه قتل مُسيلمة. وذكر أحمد أن علياً رضي الله عنه سجد حين وجد ذا الثدية في الخوارج وسجد كعب بن مالك في عهد النبي ﷺ لما بُشِّر بتوبة الله عليه والقصة في «**الصحيحين**» فإن قيل: فنعم الله دائماً مستمرة على العبد فما الذي اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم قيل: الجواب من وجوه:

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة والإنسان موكل بالأدنى.

الثاني: أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكراً له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع في النفوس والقلوب بها أعلق ولهذا يعني بها ويعزى بفقدها.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها، فكان جديراً بدوام تلك النعمة وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة وعادت استدراجاً، وقد تقدم أمر النجاشي فان الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعاً.

وقال العلاء بن المغيرة بشرت الحسن بموت الحجاج وهو مختف، فخر ساجداً..

فصل أنعام على العبيد

ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها: أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرفه نعمته عليه..

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده فاذا هو يئن فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه..

وقال عبدالله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب قلت: ما أحصي ذلك كثرة قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك قلت: لا والله ولكنه أحسن اليّ وأعانني قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني ولا استعنت به إلا أعانني قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء قال: فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك والله لشكره أيسر من مكافأة عباده إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً وقال سفيان الثوري: ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه وقال ابن أبي الحواري: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا اياه قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها ويستعمل بعمل إلا قبله.

وقال ابن أبي الحواري: قالت لي أمرأة: أنا في بيتي قد شغل قلبي قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله عليّ في طرفة عين أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة عليّ في طرفة عين قلت: تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقتضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى أنه قال: «**سروا عبدي المؤمن**» فكان لا يأتيه شيء إلا قال: الحمد لله الحمد لله ما شاء الله قال: «**روعوا عبدي المؤمن**» فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال: الحمد لله الحمد لله فقال الله تبارك وتعالى: «**إن عبدي**

يحمدني حين روَّعته، كما يحمدني حين سررته. أدخلوا عبدي دار عزي كما يحمدني على كل حالاته».

وقال وهب: عبد الله عابد خمسين عاماً فأوحى الله إليه: «**أني قد غفرت لك**» قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق فقال الملك: إن ربك يقول: «**إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق**».

وذكر ابن أبي الدنيا: أن داود قال: يا رب أخبرني ما أدنى نعمك عليّ فأوحى الله اليه: يا داود بنفس فتنفس قال: هذا أدنى نعمي عليك.

فصل [العمل لا ينجي من العذاب]

وبهذا يتبين معنى الحديث الذي رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والحديث الذي في «**الصحيح**»: «**لن ينجّي أحداً منكم عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**». فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه وأما قول بعض الفقهاء: إن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر يمينه أن يقول: الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة وإنما هو إسرائيلي عن آدم وأصح منه: الحمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله فضلاً عن موافاته جميع نعمه ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئاً للمزيد ولكن يحمل على وجه يصح وهو أن الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم يقدر العبد أن يأتي به كما إذا قال: الحمد لله ملء السمٰوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر

وعدد أنفاس الخلائق وعدد ما خلق الله وما هو خالق فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد.

فصل شكر الله تعالى

وقال أبو المليح: قال موسى: يا رب ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال وقال بكر بن عبد الله: قلت لأخ لي: أوصني فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار فان ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة الا بالحمد والشكر ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار فأوسعني علماً ما شئت وقال عبد العزيز بن أبي داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليَّ منها فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذكرتي فهانت عليَّ قرحته.

وروى الجريري عن أبي الورد عن الجلاح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال: ابن آدم هل تدري ما تمام النعمة قال: يا رسول الله دعوت دعوة أرجو بها الخير فقال: إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة.

وقال سهم بن سلمة: حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يسئل عن نعيم ذلك الطعام.

فصل فضل الشكر على الصبر

ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله سبحانه يحب أن يسئل العافية وما يسئل شيئاً أحب إليه من العافية كما في «**المسند**» عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ثم قال: «**سلوا الله العافية، فإنه لم يُعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية**». وفي حديث آخر «**إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئاً أفضل من العفو والعافية فسلوهما الله عز وجل**».

وقال لعمه العباس: «**يا عم أكثر من الدعاء بالعافية**». وفي الترمذي: قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله قال: سل الله العافية، فمكثت أياماً ثم جئت، فقلت: علمني شيئاً أسأله الله فقال لي: يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة، وقال في دعائه يوم الطائف: «إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي»، فلاذ بعافيته كما استعاذ بها في قوله: أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك.

وفي حديث آخر: سلوا الله العفو والعافية والمعافاة وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية في الحال والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها وكان عبد الأعلى التيمي يقول: أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملاً لا نجز به وإن نعمر فيها لا نبليها، ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر فقال: لقد سألت البلاء فاسأل العافية وفي صحيح مسلم: أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت ـ أي هزل ـ فصار مثل الفرخ فقال ﷺ: هل كنت تدعو الله بشيء ـ أو تسأله اياه ـ قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فدعى الله له فشفاه وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاء حفظته من رسول الله ﷺ لا أدعه: اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك.

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: لك الحمد بالإسلام،

ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطتَ رزقنا وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيراً، كما تنعم كثيراً، أعطيت خيراً كثيراً، وصرفت شراً كثيراً، فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد.

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي، فإنها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن، ولك الفضل ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت.

وقال مجاهد: إذا كان ابن عمر في سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى سمع سامع يحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا ثلاثاً: اللهم صاحبنا فأفضل علينا عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاثاً.

وذكر الإمام أحمد: إن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى كن يقظان مرتاداً لنفسك أخدانا، وكل خدن لا يواتيك على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو لك وهو يقسي قلبك وأكثر من ذكري حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد وقال الحسن: خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى: فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي قال: يا آدم إني أريد أن أشكر.

وفي «السنن» عنه ﷺ: **«من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة، أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يمسي، فقد أدى شكر ليلته»**.

ويذكر عنه ﷺ: **«من ابتلي فصبر وأعطي فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»**.

ويذكر عنه ﷺ أنه أوصى رجلاً بثلاث فقال: **«أكثر من ذكر الموت يشغلك**

عما سواه وعليك بالدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة».

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا أكل قال: **«الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وهداني وكل بلاء حسن أبلاني الحمد لله الرزاق ذي القوة المتين اللهم لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا ولا صالحاً رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين».**

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا اكل قال: **«الحمد لله الذي أطعم وسقى وسقى وجعل له مخرجاً»** وكان عروة بن الزبير إذا أتي بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات: الحمد لله الذي هدانا وأطعمنا وسقانا ونعمنا الله أكبر، اللهم الفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك إله الصالحين ورب العالمين الحمد لله لا إله إلا الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.

وقال وهب بن منبه: رؤوس النعم ثلاثة: **فأولها**: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمه إلا بها **والثانية**: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها **والثالثة**: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به.

وقدم سعيد الجريري من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا ثم قال: تعداد النعم من الشكر ومر وهب بمبتلى ـ أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح ـ وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك الى أهل المدينة، فانظر الى كثرة أهلها أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري.

ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا أنعم الله على عبدٍ نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها»**. وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن بختنصر أتي بدانيال فأمر به فحبس في جبٍ وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام، فوجده قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له، فقال له: ما قلت حين دفع عنك؟ قال: قلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي لا يكل من توكل

عليه إلى غيره، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر في المرآة قال: «**الحمد لله الذي أحسن خَلْقي وخُلقي، وزان مني ما شان من غيري**».

وقال ابن سيرين: كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة وتكون معه في الأسفار فقلت له: ولم قال: أنظر فما كان في وجهي زين، فهو في وجه غيري شين، أحمد الله عليه وسئل أبو بكر بن أبي مريم: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة وقال بكر بن عبد الله: يا ابن آدم إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) قال: أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصي.

وقال ابن شوذب: قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ: إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الداراني: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالاً: الكرم والسخاء والحلم والرأفة والرحمة والشكر والبر والصبر.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً فقد أدى شكر تلك النعمة.

وقال عبد الله بن وهب: سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه.

قال: ينظر في نعم الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله حق على العبد أن يعمل في النعمة التي هي في بدنه لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق وحق عليه أن يعمل لله فيما

أنعم عليه به من الرزق بطاعته فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الأخرى وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه.

نِعَمُ الله لا تُحْصَى

وقال الحسن: من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه. وقال الحسن يوماً لبكر المزني: هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: والله ما أدري أي النعمتين أفضل عليَّ وعليكم؟ أنعمة المـلك أم نعمة المخرج؟ إذا أخرجه منا، قال الحسن: إنها لمن نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر قال الحسن: يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرخاً لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الجب فيكتال منه ثم يجرجر قائماً فيقول: يا ليتني مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات يا لها من نعمة.

وكتب بعض العلماء إلى أخٍ له: أما بعد، فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر: أجميل ما يسر أم قبيح ما ستر؟

وقيل للحسن: ههنا رجل يجالس الناس فجاء إليه فسأله عن ذلك، فقال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة. فقال له الحسن: أنت عندي يا عبد الله أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه.

وقال ابن المبارك: سمعت عليّ بن صالح يقول في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧). قال: أي من طاعتي والتحقيق أن الزيادة من النعم وطاعته من أجل نعمه وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقول بالليل ويرفع صوته أحياناً: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد ربنا، ولك الحمد حمداً كثيراً.

وكان بعض الخطباء يقول في خطبته: اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه، ثم أدار منك الحدقة، فجعلها بجفون مطبقة وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة، فنعمه عليك مورقة وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم: ٣٤): سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله صابراً وشاكراً ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله صابراً شاكراً»**.

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه: «**أربع خصال من كن فيه بني الله له بيتاً في الجنة: من كان عصمة أمره لا إله إلا الله وإذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون وإذا أعطى شيئاً قال: الحمد لله وإذا أذنب قال: أستغفر الله**».

وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣) قال: لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه ولم يمش مشياً قط إلا حمد الله عليه ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه فأثنى الله عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله وإذا شرب قال الحمد لله وإذا لبس قال: الحمد لله وإذا ركب قال: الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته.

فصل حقوق الله على عباده

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما: **أحدهما**: أمره ونهيه اللذين هما محض حقه عليه، **والثاني**: شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته فإن لم يداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله وأكثر الديانين لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها وفضلاً عن أن يفعلوها وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك

هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصرة دينه وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب أن فيهم فلاناً الزاهد العابد قال: به فابدأ وأسمعني صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط.

فصل [في شهود النعمة]

وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً ولو عمل أعمال الثقلين فإن نعم الله عليه سبحانه أكثر من أعماله وأدنى نعمة تستنفد عمله فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع فقال: يا رب ارحمه، فإني قد رحمته فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه. فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ولا يزال مزرياً على نفسه ذاماً لها وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان.

□